أثر أسلوب مخاطبة القرآن الأفراد ضمن الجماعة في تكافل الأمة من خلال تفسير المنار

أ. كريب يونس*

سلم البحث في ١٤٣٨/٨/٢٢هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٤٣٨/٩/٢٦هـ

ملخص البحث:

هذا البحث يعنى بإظهار أسلوب قرآني، يخاطب فيه القرآن الأفراد ضمن الجماعة، الذي اهتم بإبرازه رشيد رضا في تفسيره المنار، ومن ثم جاء هذا البحث ليظهر الأثر الذي يخلفه هذا الأسلوب في تكافل الأمم، فانتظمت الإشكالية التي مفادها: كيف خاطب الله الأفراد في القرآن، وأثر ذلك في التكافل الاجتماعي، وأثره في ترجيحات رشيد رضا، وللإجابة على الإشكال المذكور قسمنا البحث إلى ثلاثة مباحث: الأول: في علاقة الفرد بالمجتمع والتلاحم بينهما، والثاني: في صيغ مخاطبة الأفراد في القرآن لتحقيق التكافل، ويندرج تحته: مخاطبة الخلف بفعل السلف، ومخاطبة الجماعة بفعل الأفراد، ثم مثلنا بنماذج من أثر الأسلوب في تماسك الاجتماع البشري، وأخيرا أوردنا ترجيحات تفسير المنار بالأسلوب المذكور، ثم ذيلنا بخاتمة فيها أهم النتائج المتوصل إليها.

Abstract:

This research is meant to show a Qur'anic approach, in which the Qur'an addresses the individuals within the group, which was highlighted by Rashid Rida in his interpretation of Al-Manar. Hence, this research shows the effect that this method has on the interdependence of nations. The problem is how God addressed individuals in the Qur'an, And the impact on the social interdependence, and its impact on the weights of Rashid Rida, and to answer the problem mentioned section of the research into three questions: the first: in the relationship of the individual community and cohesion between them, and the second: in ways of addressing individuals in the Koran to achieve interdependence, and falls under: And addressing the group by individuals, and then Ttlen And we finally presented the weights of the interpretation of Al-Manar in this manner, followed by the conclusion of the most important conclusions reached.

المقدمة:

هذا القرآن أنزله الله تعالى لسعادة البشر في الدنيا والآخرة، إن هم استقاموا على أحكامه وآدابه، فقال رب العزة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى* إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[1] وعلى قدر سيرهم خلف الكتاب المنير يكون عزهم ونجاتهم، ونحن نعيش

* طالب دكتوراه، تخصص: الدراسات القرآنية والتفسير، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، الجزائر.

اليوم في زمن صار الناس من أبعد ما يكونون عن تلاوته، فضلا عن العمل به وتحكيم ما ظهر من أحكامه، فضلا أن تكدح العقول في استخراج دُرره التي تليق بكل زمان ومكان بما جعله الله لهذا القرآن من خاصيّة الهيمنة والصلوحيّة أبدا، وإن هذا القرآن قد حوى أساليب أفحمت أقحاح العرب، وأعجزتهم عن أن يأتي أحدهم بما ينتصر فيه لآلهته وهو يرى قلاعها تدك ومعاقلها تهدم، فكان هذا الكتاب حجة الله على العالمين، وقد جاء القرآن ليؤسس الحياة الاجتماعيّة، التي تسعد بها الأمم أعظم سعادة بأعظم بيان، فمن الأساليب الراقية التي نهجها القرآن لهذا الصدد مخاطبة الأفراد ضمن الجماعة لما في ذلك من عظيم الأثر في التكافل الاجتماعي، ولما كان الأمر بهذه الأهمية في إبراز أسلوب رفيع في بيان التكافل وإثبات أن هذا القرآن فيه سعادة الناس الاجتماعية لما كان الأمر كذلك ارتأينا أن نجمع هذه المادة حتى تخرج على شكل لطيف يسهل الرجوع إليه.

وتفسير المنار من أهم التفاسير المعاصرة التي عني صاحبها محمد رشيد رضا، بإبراز القواعد الاجتماعية المفيدة للناس في حياتهم الاجتماعية والعمرانية، ومن هنا انطلقت فكرة البحث، لتجمع شتات ما ذكره هذا المفسر ثم ما ذكره غيره تقريرا لهذه القاعدة، فجاء هذه البحث يحمل إشكالية مفادها كيف خاطب الله الأفراد في القرآن وما أثر ذلك في التكافل الاجتماعي، وما أثره في ترجيحات رشيد رضا[٢] في تفسير المنار.

ومن أجل ذلك قسمنا البحث إلى ثلاثة مباحث: فجعلنا الأول: في طرائق مخاطبة الأفراد ضمن الجماعة في القرآن، والثاني: حول آثار ذلك في التكافل الاجتماعي، والثالث: حول نماذج من ترجيحات المنار بالأسلوب، ثم ذيلنا بخاتمة.

المبحث الأول
علاقة الفرد بالجماعة

يظهر خطاب الله للأفراد ضمن الجماعة كثيرا لاسيما في المواضع التي تجرّ معها العقوبات على الأمة جميعا إذا لم تأخذ الأمة على يد المذنب الجاني، وقد جاء هذا الأسلوب من القرآن في كثير من المواضع يقرر أن الفرد لا نجاة له إلا ببني جنسه، نجاته بنجاتهم وهلاكه بهلاكهم، ومن أجل هذا جاء يرشد إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يعمّ الشر.

ففي الاجتماع الإنسانيّ تكون الأمم متكافلة، يعتبر كلّ فردٍ منها سعادته

بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقائهم، ويتوقّع نزول العقوبة إذا فشت الذّنوب في الأمّة وإن لم يواقعها هو[٣]، ذلك أنّ الفتن في الأمم والظّلم الّذي ينتشر فيها، ولا يقوم من أفرادها وجماعاتها من يقاومه يعمّ فساده، بخلاف ذنوب الأفراد غير العامّة المنتشرة، فالأمّة في تكافلها كأعضاء الجسد الواحد، فكما أنّ الجسد يتداعى ويتألّم كلّه لما يصيب بعضه كذلك الأمم[٤]، فالفتنة لا تضر الظلمة فقط بل تتعداها إلى الصالحين أيضا كما ورد عن عن زينب بنت جحش ﵂، أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: "لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم، إذا كثر الخبث"[٥].

بل حتى عند العجماوات تجد الحشرة الصغيرة تحس بالانتماء لبني جنسها قال تعالى على لسان النملة: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦]، ولم ينسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها؛ إذ كانت تدرك بفطرتها أن لا حياة لها بدونهم، ولا نجاة لها إذا لم تنج معهم، فأنذرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ الإنذار،فهذا يعلمنا أن لا حياة للشخص إلاّ بحياة قومه، ولا نجاة لهم إلاّ بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلاّ إذا شعر بأنه جزء منهم[٧].

وفي جميع الاجتماعات البشرية على مر التاريخ، لم نسمع عن جيش منهزم في معركة نجا منه بقية من الأفراد، فاحتفلوا بسلامتهم من دون إخوانهم الذين قضوا إلا ما كان من أحوال المنافقين الذين كانوا يسرون بمصيبة المؤمنين كقولهم تشفيا في غزوة أحد ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٨]، ومن هنا جاء خطاب القرآن للأفراد ضمن الجماعة حتى يذكي فيهم روح الوحدة المشتركة.

المبحث الثاني
صيغ مخاطبة الأفراد في القرآن لتحقيق التكافل

سلك القرآن مسلكين في مخاطبة الأمة الواحدة مقررا بذلك وحدتها وتكافلها، فهو إما أن يخاطب المتقدمين بفعل المتأخرين، وإما أن يخاطب الجماعة ويقصد بعض الأفراد.

أ- مخاطبة الخلف بأعمال السلف:

يخاطب الله جل وعلا المتأخرين بأعمال المتقدمين، وفي هذا إشارة واضحة إلى الالتحام الواقع بين الأمة، إذ الأخلاق تتوارث من جيل إلى جيل، وكثيرا ويظهر جليا أنّ القرآن يهدينا إلى وحدة الأمّة ووجوب تكافلها، بمثل إسناد عمل المتقدّمين منها إلى المتأخّرين، ووضع اسم الأمّة أو ضميرها في مقام الحكاية، أو الخطاب لبعض أفرادها[٩].

وسنورد أمثلة على هذا الجزء من الأسلوب:

المثال الأول: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١٠]، قيل: إنّ المراد بهذه الآية إنّ الّذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغير حقٍّ اليهود خاصّة، وقد نسب إليهم قتل النّبيّين الّذي كان من سابقهم لاعتبار الأمّة في تكافلها وجري لاحقها على أثر سابقها، كالشّخص الواحد[١١]، فالذين قتلوا الأنبياء ليسوا ممن عاصر النبي ﷺ، لكن لما كانت الأمة متكافلة في مصالحها خوطب المتأخرون بما فعل المتقدمون.

المثال الثاني: قول الحق سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[١٢]، فلا يزال اليهود أهل ذلة وهوان على مر الأزمان، فبين جل وعلا أن سبب ذلك -على الرغم من الذين قتلوا الأنبياء لم يفعلوا ذلك-كون العصيان والاعتداء صار خلقا للأمّة وطبعا لها يتوارثه الأبناء عن الآباء بلا نكيرٍ، ولهذا نسب إلى متأخّريهم عمل متقدّميهم، والأمم متكافلة ينسب إلى مجموعها ما فشا فيهم وإن ظهر بعض آثاره في زمنٍ دون زمنٍ[١٣].

فنسبة القتل إلى اليهود المعاصرين في زمن نبينا ﷺ، مع أنه كان من أجدادهم، لأنهم كانوا راضين عنه، مقرين بما ارتكبوا، متعاطفين مع بني جنسهم، مما يدل على أن الأمة متكافلة متضامنة فيما بينها في القضايا العامة، وأنها تؤخذ بجريرة وذنب أفرادها، إذا كانوا مقرين أفعالهم ولم ينكروها عليهم[١٤].

المثال الثالث: قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١٥]، فنلاحظ هنا أيضا أن الذين خوطبوا بالآية، هم الذين عاصروا النبي ﷺ من اليهود وليسوا هم من عوقبوا فخاطب المعاصرين بما فعل المتقدمون، وإنما قص الله علينا هذا القصص ووجهه إلى من كان من اليهود في عصر التنزيل لبيان وحدة الأمة، وأن ما يبلوها به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنقم إنما هو لمعنى فيها يسوغ أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع منه، ليعلم الناس أن الأمم متكافلة، سعادة الفرد منها مرتبطة بسعادة سائر الأفراد، وشقاؤه بشقائهم، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يفعلها هو[١٦].

ب- مخاطبة الأمة جمعاء بعمل بعض الأفراد:

المثال الأول: قال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[١٧]، ظاهر هذه الجملة وحدها أن النهي إنما هو عن قتل الإنسان لنفسه، وهو الانتحار، والمتبادر منها في هذا الأسلوب أن المراد: لا يقتل بعضكم بعضا، وهو الأقوى، واختير هذا التعبير للإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها[١٨].

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾[١٩]، قال محمد عبده[٢٠] عن سبب قوله تعالى: ﴿أموالكم﴾ دون أموالهم: لبيان التكافل في الأمة، واعتبار مصلحة كل فرد من أفرادها عين مصلحة الآخرين[٢١]فالأموال ليست إلا للسفهاء لكن أراد القرآن أن يقرر أن ما كان تحت يد السفهاء فإنما هو ملك للأمة جمعاء فما ينبغي لها أن تفرط فيه.

المثال الثالث: قال الحق سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢٢]، فهذا القول الشنيع لم يقله كل اليهود، بل قال ذلك بعضهم، ونسبه إلى الأمة بناء على التكافل العام بين أفرادها وكونها[٢٣]، فهذه الآية تحكي عن اليهود أقوالا وأفعالا

مسندة إليهم في جملتهم، وهي ممّا صدر عن بعضهم، والمراد تقرير أن الأمة تعد متكافلة في شئونها العامة، وأن ما يفعله بعض الفرق أو الجماعات أو الزعماء منها يكون له تأثير في جملتها، وأن المنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم[٢٤].

وقد بين ربنا من ضرورة توقي الحذر من أمثال هذه الأقاويل الباطلة قبل شيوعها، ونزول العقوبة، لأنها إذا حلت العقوبة لم تقتصر على الظالمين فقط، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٢٥]، وفي هذا التكافل رقيّ الأمة وتقدمها في المدنية والحضارة، إذ يحملها على التعاون البأساء والضراء فتحوز قصب السبق بين الأمم.[٢٦]

المثال الرابع: قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[٢٧]، فهنا جعل سبحانه الظن بالخير ليس على من اتهموا بالمعصية بل جعل على النفس، والمعنى ظنّ النّاس بعضهم ببعضٍ خيرا، وجعل الغير مقام النّفس، فمخاطبة الأمة جميعا بما ينبغي أن يكون منهم إذا ما ألقيت التهمة على بعض المسلمين له أثر في الالتحام وأن القضية شأن الأمة جميعا.

المطلب الثاني
نماذج من أثر الأسلوب في تماسك الاجتماع البشري

لهذا الأسلوب مغزى بعيد المرام في حفظ مقاصد الشريعة، فورد في سياقات متعددة يكون من نتائجها حفظ النفس والمال والعرض وغيرها.

ورد الأسلوب في سياق حفظ النفس:

– فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢٨]، أي يقتل بعضكم بعضا، كما كان يفعل من قبلكم[٢٩]، فقتل بعض الأمة لبعض إنما هي عقوبة لهم وإنقاص لشوكتهم، وهذا الأسلوب في هذا السياق له أثر في حفظ النفس.

- وقال تعالى ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣٠]، فقد نهى الله تعالى المؤمنين أن يأكل بعضهم أموال بعض بغير وجه مشروع، وأضاف كلمة أموال إلى الجماعة إشعارا بأن المال في الحقيقة مال الأمة أو الجماعة، فهي أمة واحدة متكافلة، وتنبيها إلى أن احترامَ وحفظ مال الغير احترامٌ وحفظ لمال الفرد[٣١].

- وقال تعالى في سياق آخر: ﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا﴾[٣٢]، فأضاف الله جل وعلا المال هنا أيضا إلى الأمة جميعا ولم يجعله حكرا على السفهاء إشارة إلى التكافل وأنه مال الأمة جميعا في سياق حفظ مال السفيه الذي لا يحسن التصرف وقد جلى هذا المعنى بعضهم[٣٣]، فقال: ولو أنه مال اليتامى، إلا أنه -قبل هذا- مال الجماعة أعطاه الله إياه لتقوم به وهي متكافلة في الانتفاع بهذا المال على أحسن الوجوه. فالجماعة هي المالكة ابتداء للمال العام، واليتامى أو مورثوهم إنما يملكون هذا المال لاستثماره -بإذن من الجماعة- ويظلون ينتفعون به وينفعون الجماعة معهم، ما داموا قادرين على تكثيره وتثميره، راشدين في تصريفه وتدبيره -والملكية الفردية بحقوقها وقيودها قائمة في هذا الإطار- أما السفهاء من اليتامى ذوي المال، الذين لا يحسنون تدبير المال وتثميره، فلا يسلم لهم، ولا يحق لهم التصرف فيه والقيام عليه -وإن بقيت لهم ملكيتهم الفردية فيه لا تنزع منهم- إنما يعود التصرف في مال الجماعة إلى من يحسن التصرف فيه من الجماعة. مع مراعاة درجة القرابة لليتيم، تحقيقا للتكافل العائلي، الذي هو قاعدة التكافل العام بين الأسرة الكبرى، وللسفيه حق الرزق، فهاتان الآيتان تبينان أن إضافة المال إلى الجماعة له أثر في حفظ المال وتحقيق التكافل الاجتماعي.

- وقال جل شأنه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٣٤]، هذه الآيات تذكير عام لجميع الناس بالوصية التي هي عمل من أعمال البر والخير بعد الموت، في حال ظهور

أماراته وعلاماته، بعد أن ذكر الله القصاص في القتل، وهو موت، وجاء الخطاب للمجموع، لأن الأمة متكافلة، يخاطب المجموع منها بما يطلب من الأفراد[٣٥]، ووجه الخطاب إلى أفراد الأمة جميعا باعتبار تلاحم أفرادها في توزيع هذه الثروة المالية التي يخلَفها المشرف على الهلاك.

– وقال تعالى: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣٦]، فالخطاب في مثل هذه الآية للأمّة، لأنّها متكافلة في المصالح العامّة، وأولو الأمر هم المطالبون أوّلا وبالذّات بالقيام بالمصالح، والحكّام منهم وسائر النّاس رقباء عليهم[٣٧]، فهذا الخطاب له أثر في حفظ التماسك للمجتمع وتحقيق العدل وانضباط الأزواج، لعلمهم بافتراض إقامة الأمر والنهي على الأمة جمعاء والتبليغ عما عساهم اطلعوا عليه من مخالفة المتزوجين لهذه التشريعات.

المطلب الثاني
أثر الأسلوب في ترجيحات المنار

كان للأسلوب أثر في ترجيح بعض الأقوال على بعض في تفسير المنار سواء عند رشيد رضا أو عند شيخه محمد عبده، ونذكر نماذج منها:

– قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣٨]، اختلف العلماء في تعيين المخاطب بهذا القصاص فهل هو القاتل أم المقتول أم ولي الدم أم عصبة القاتل أم سائر الناس الأجانب أم الحكام؟.

وقد جعل محمد عبده الخطاب موجها للجميع، بدءا من القاتل والحاكم وانتهاءً بسائر المسلمين، كلٌّ على حسب الأمر الذي نيط به معللا بالأسلوب نفسه فقال رحمه الله: والآية جارية على أسلوب القرآن في مخاطبة جماعة المؤمنين في الشئون العامة والمصالح، لاعتبار الأمة متكافلة ومطالبة بتنفيذ الشريعة وحفظها،

وبالخضوع لأحكامها كما تقدم بيانه في مخاطبة اليهود بإسناد ما كان من آبائهم إليهم[٣٩]، فمراعاة مقصد الشريعة في تحقيق التكافل من توجيه الخطاب للأمة جميعا كان مرجحا لمحمد عبده في تعيين المخاطب بالقصاص.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤٠]، وقد اختلف المفسرون في مرجع الخطاب في الآية الكريمة، فقيل: للأزواج، وقيل: للأزواج والأولياء على الترتيب، وقيل: للأمة جميعا، وهو الذي رجحه الزمخشري[٤١] في الكشاف[٤٢]، واختاره محمد عبده، وعلى هذا المعنى يصير الخطاب لها لأنها متكافلة في المصالح العامة على حسب الشريعة، كأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا إذا وقع منكم تطليق للنساء وانقضت عدتهن وأراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن وأردن هن ذلك فلا تعضلوهن أن ينكحن، أي: لا تمنعوهن من الزواج، وعلى هذا الوجه يأخذ كل واحد حظه من الخطاب للمجموع[٤٣]، وتظهر الحكمة من توجيه الخطاب للأمة جميعا أن المسلم متى علم وقوع العضل من أحد الأزواج سارع بالإنكار حتى ينحصر الشر ولا يعم العقاب الجميع[٤٤]، فعلى الأمة ممثلة بوجهائها وعلمائها وحكامها وعقلائها أن تكون متكافلة متضامنة في تحقيق المصلحة العامة، فلا تمنع المعروف، ولا تقرّ المنكر، فتهلك وتتضرّر[٤٥].

الخاتمة:

الحمد لله على تيسيره وإعانته في جمع مادة البحث الذي يمكن تلخيص نتائجه فيما يلي:

- مخاطبة الأفراد ضمن الجماعة من الأساليب المهمة التي حواها الكتاب العزيز وأبرزها صاحب تفسير المنار كثيرا.

- تنوع أسلوب مخاطبة الأفراد في القرآن الكريم إلى ضربين:

إما أن يخاطب الحاضرين بما صنع الأقدمون، أو يخاطب الأمة بما صنعه بعض الأفراد منهم.

- مخاطبة الأفراد ضمن الجماعة جاء في سياقات مختلفة: في سياق حفظ المال

والنفس

- إثبات أن الأسلوب له أثر في التكافل الاجتماعي والتلاحم وأن توجيه الخطاب للآخرين بما فعله الأولون له أعظم الأثر في ذلك..

- بيان أن القرآن الكريم حوى نواحي إعجازية كبرى وأنه جاء لإصلاح البشر جميعا.

- مراعاة التكافل الاجتماعي له أثر في ترجيحات تفسير المنار وغيره من التفاسير.

- ما تقوم به بعض الدول من الاعتذار لمستعمراتها على الجرائم المرتكبة لأسلافهم مع أن الذين قاموا بالجرائم قضوا هو من هذا الصدد.

وهذا ما يسّر الله إعداده وأعان في إيراده وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث:

[1] طه، الآية: ١-٢

[2] محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. (١٢٨٢- ١٣٥٤هـ =١٨٦٥- ١٩٣٥م) ينظر: الأعلام للزركلي (١٢٦/٦) ت ط: ٢٠٠٢م، رط: ١٥، ط: دار العلم للملايين.

[3] تفسير المنار لرشيد رضا (٢٦٧/١)ط: الهيئة العامة المصرية للكتاب، تط: ١٩٩٠م

[4] تفسير المنار لرشيد رضا(١٢١/١٠)

[5] أخرجه البخاري، باب: باب قصة يأجوج ومأجوج، ح: ٣٣٤٦، (١٣٨/٤)ط: ١، تط: ١٤٢٢ه، ط: دار طوق النجاة، مسلم، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ح: ٢٨٨٠(٢٢٠٧/٤)كتاب: الفتن وأشراط الساعة، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي.

[6] النمل، الآية: ١٨

[7] ينظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس(٢٦٢/١)، رط: ١، تط: ١٩٩٥م، ط: دار الكتب العلمية.

[8] آل عمران، الآية: ١٦٢

[9] تفسير المنار ارشيد رضا (٢٨٩/٦)

[10] آل عمران، الآية: ٢١

[11] تفسير المنار رشيد رضا (٣ /٢١٥)

[12] آل عمران، الآية: ١١٢

[١٣] تفسير المنار لشيد رضا (٥٨/٤)
[١٤] التفسير المنير للزحيلي (١٨٧/٤) ط: الفكر المعاصر، ط: ٢، تط: ١٤١٨ه.
[١٥] البقرة، الآية: ٥٦
[١٦] المراغي في تفسيره (١٢١/١)، ن: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط: ١، تط: ١٩٤٦م
[١٧] النساء، الآية: ٢٩
[١٨] تفسير المنار لشيد رضا (٣٦/٥)
[١٩] النساء، الآية: ٥
[٢٠] محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام [١٢٦٦- ١٣٢٣هـ= ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] ينظر: الأعلام للزركلي (٢٥٢/٦)
[٢١] تفسير المنار لرشيد رضا (٣١٠/٤)
[٢٢] المائدة، الآية: ٦٤
[٢٣] ينظر: تفسير المراغي (١٥٢/٦)
[٢٤] تفسير المنار لرشيد رضا (٢٨٦/١٠)
[٢٥] الأنفال، الآية: ٢٥
[٢٦] تفسير المراغي (١٢١/١)
[٢٧] النور، الآية: ١٢
[٢٨] البقرة، الآية: ٨٥
[٢٩] تفسير المنار (٣٠٨/١)
[٣٠] البقرة، الآية: ١٨٨
[٣١] التفسير المنير للزحيلي (١٦٤/٢)
[٣٢] النساء، الآية: ٦
[٣٣] في ظلال القرآن (٥٨٥/١)
[٣٤] البقرة، الآية: ١٨٠
[٣٥] التفسير المنير للزحيلي (١١٩/٢)
[٣٦] البقرة، الآية: ٢٢٩
[٣٧] تفسير المنار لرشيد رضا (٣٠٨/٢)
[٣٨] البقرة، الآية: ١٧٨
[٣٩] تفسير المنار لرشيد رضا (١٠٣/٢)
[٤٠] البقرة، الآية: ٢٣٢
[٤١] الزّمخْشرِيّ أبو القاسِمِ محْمودْ بن عمر بنِ محمّدٍ، ت: ٥٣٨هـ، له: أساس البلاغةِ، و: مشتبه أسامِي الرّواةِ.
ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٥٦/٢٠) ط: الرسالة، ط: ٣، تط: ١٤٠٥ه.
[٤٢] الكشاف للزمخشري (٢٤٦/١) ط: دار الكتاب العربي، ط: ٣، تط: ١٤٠٧ه.

[٤٣] تفسير المنار لرشيد رضا (٣١٩/٢)
[٤٤] ينظر: تفسير المنار لرشيد رضا (٢١٩/٢)
[٤٥] التفسير المنير، وهبة الزحيلي (٣٥٣/٢)

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- في ظلال القرآن لسيد قطب ط: دار الشروق، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة عشر، ١٤١٢هـ
- تفسير المراغي: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط: ١، تط: ١٩٤٦م
- الأعلام للزركلي تط: ٢٠٠٢م، رط: ١٥، ط: دار العلم للملايين.
- التفسير المنير للزحيلي ط: الفكر المعاصر، ط: ٢، تط: ١٤١٨هـ.
- الكشاف للزمخشري ط: دار الكتاب العربي، ط: ٣، تط: ١٤٠٧هـ.
- تفسير المنار لرشيد رضا ط: الهيئة العامة المصرية للكتاب، تط: ١٩٩٠م
- سير أعلام النبلاء للذهبي ط: الرسالة، ط: ٣، تط: ١٤٠٥هـ.
- صحيح مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي.
- صحيح البخاري ط: ١، تط: ١٤٢٢هـ، ط: دار طوق النجاة
- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير لابن باديس، رط: ١، تط: ١٩٩٥م، ط: دار الكتب العلمية.